الفصل الأول: نشأة الفلسفة

أولا–الفلسفة والحضارات الشرقية

قبل الحديث عن الفلسفة في بلاد اليونان، –باعتبارها المهد الذي نشأت وترعرعت فيه– من الضروري الإشارة إلى محطة هامة سبقت المرحلة اليونانية لخّصها شارل فرنر في كتابه "الفلسفة اليونانية" قائلا "أنّ اليونانيون كانوا يدركون جيدا فضل حكمة الشرق عليهم. وكانوا يتحدثون باحترام كبير عن العلوم والحضارات الشرقية". والفكرة نفسها تقريبا أشار إليها المستشرق الفرنسي "بول ماسون أورسيل" في مقدمة كتاب "الفلسفة في الشرق" "لم يكن التفكير في الغرب، وفي أي فترة تاريخية، منعزلا عن بقية أنحاء العالم، وقد آن الأوان لكي نضع حدا لاعتبارنا أنّ الحضارات (الهند–أوروبية) غريبة بعضها عن بعض وفي مقدمتها الحضارتين اليونانية والهندية"

ويظهر التأثير الشرقي على الخصوص في النظريات الدينية والأساطير المنتشرة في بلاد فارس والهند، والتي استوعبها اليونانيون، وظل الفكر اليوناني مكبلا بها مدة قرون ليتجاوزها فيما بعد، ويتخلص شيئا فشيئا من العناصر الأسطورية والدينية ويصل بالفلسفة إلى أوجها.

ثانيا-الفلسفة في المرحلة اليونانية وعوامل ظهورها:

1-عوامل ظهور التفلسف في بلاد اليونان

لقد انطلق العقل اليوناني في نشاطه من خلال التفكير الأسطوري، القائم على الخرافات، والارتباط الروحي الوثيق بين الأحداث وقرارات الآلهة، هذه الأخيرة قد تكون بشرية ممثّلة في أشخاص، أو مادية كالكواكب والأشجار والمياه... وقد أسند لهذه الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الانسان.

إلا أنّ العقل اليوناني تحرر لاحقا من سلطة هذه الذهنية السحرية، انطلاقا من التفكير في أصل الكون، مرورا بالبحث في مصدر الحقيقة، فاتحا بذلك أبواب التفلسف الراقي. وكان هذا تحت تأثير العوامل الآتية:

- الظروف الاقتصادية للمجتمع اليوناني والتي كانت نتيجة للتقسيم الطبقي القائم على نظام الانتاج العبودي مما أفرز فئة اجتماعية متحرّرة من قيود الحاجة، وكان لها متّسعا من الوقت للعمل الذهني بما فيه الفلسفة.

- عوامل سياسية تتمثّل على الخصوص في المدينة اليونانية؛ فالنظام السياسي اليوناني القائم على "فكرة الديمقراطية، والتي تضمن للأفراد حق المساواة أمام القانون من جهة. وكذا حرية التفكير والتعبير من جهة ثانية. فالبيئة القائمة على الحرية هي البيئة المؤهلة أكثر لنشأة التفلسف، يقول هيغل "ظهور الفلسفة سيتوجب الوعي بالحرية، والشعب الذي تبدأ فيه الفلسفة يجب أن يعتمد الحرية كمبدأ له، وذلك مرتبط عمليا بازدهار الحرية الحقيقية ، ألا وهي الحرية السياسية".

2- بذور التفلسف مع سقراط:

تعتبر مرحلة سقراط محطة هامّة في تغيير مجرى التفكير نحو الانسان باعتباره المدار الجوهري لكل تفكير فلسفي، رافعا شعار "اعرف نفسك بنفسك"، وقد اقترنت مرحلة سقراط بازدهار النزعة السفسطائية. لقد كانت السفسطة تتمثّل أساسا في ممارسة الخطاب، والذي يتطلّب في نجاحه فن البلاغة وسحر الكلام لإقناع الخصم بالفكرة مهما كانت على حساب المنطق والعقل. لقد اصطدم الفيلسوف اليوناني –وعلى الخصوص سقراط ومن بعده أفلاطون وأرسطو– بالفكر السفسطائي من جهة، وبالموقف العامي من جهة أخرى، فهذا الأخير لا يقِلّ خطورة عن الأول، فهو المكتفي بذاته، الواثق من نفسه والمقتنع بحقيقته.

في صراع الفيلسوف اليوناني على هاتين الجبهتين تظهر خصوصية التفكير الفلسفي كمحاولة لتخطي ملابسات الحياة اليومية إلى أمر أكثر قيمة. على هذا الأساس الفلسفة عموما هي عملية تأمّل فكري وبحث منهجي مُنَظّم في طبيعة الموجودات.

3- أرسطو والفلسفة:

يعتبر أرسطو أنّ دواعي التفلسف تكمن في طبيعة الإنسان في حدّ ذاته، فهو يسعى دوما لمعرفة كلّ ما يحيط به، لكن كثيرا ما يقف مندهشا أمام عجزه عن ايجاد تفسيرات مُقْنِعة لِما يدور حوله من ظواهر، على هذا الأساس يَعتبِر أرسطو أنّ الدهشة هي المنطلق الأول نحو التفكير "إنّ الدهشة هي التي دفعت بالمفكرين الأوائل كما هو الأمر اليوم إلى النظر الفلسفي. في البداية انصبّت دهشتهم على الصعوبات التي مثلت في الذهن. ثمّ أنّهم بتقدّمهم على هذا النحو شيئا فشيئا سحبوا استطلاعاتهم على مشكلات أهمّ مثل الظواهر المتّصلة بالقمر وبالنجوم، وصولا إلى نشأة الكون. غير أنّ المرء الذي يتبيّن صعوبة، ويندهش لها إنّما يعترف بجهله الخاص (لذلك حتى حبّ الأساطير كان من جهة ما، حبّاً للحكمة، فالأسطورة نسيج من العجائب)".

إنّ أكثر ما يجمع الفلاسفة على اختلاف مشاربهم هو محاولة تجاوز قيود العادات التي تكبّل تفكيرهم، ومن سيطرة الظواهر التي تحدّ من رؤيتهم. وهذه المحاولة تبرز سواء عند سقراط في طريقة التوليد، أو عند أفلاطون في محاولة سجين أسطورة الكهف والتحرر من ظلمات الجهل والعالم الحسي، أو عند أرسطو في التأسيس لعلم المنطق، أو عند الغزالي وديكارت في شكهما المنهجي في المعارف والمعتقدات القائمة بغية التأسيس لواقع معرفي جديد.